لقد لقيت فنون العمارة الايطالية اقبالا كبيرا من قبل الاسبان زمن الملوك الكاثوليك وظهرت هذه المؤثرات في كلية القديس غريغوار في فالادوليد وكذلك في واجهة بلدية اشبيلية . لكن الاسبان كونوا في منتصف القرن السادس عشر طرازا في العمارة والنحت خاصا بعصر نهضتهم .

وفي انجلترا اعاقت حروب المائة سنة وحرب الوردتين تقبل الانجليز لافكار النهضة ومسايرة ركبها . ثم جاءت اولى رياح النهضة اليهم على يد عدد قليل من الطلاب والدارسين الذين بهرتهم انوار عصر النهضة في ايطاليا فقصدوا جامعاتها ليتعلموا على ايدي اساتذتها ومن ابرز هؤلاء كوليت Colet الذي بدأ يحاضر منذ سنة 1496 في علم اللاهوت مطبقا اساليب فالا في النقد التاريخي على رسائل القديس بولس ، وكذلك برع في الدراسات الانسانية في انجلترا توماس مور ابن البورجوازية الانجليزية ورفيق وصديق ارازم . كما تبنت جامعتي اكسفورد وكمبرج مبادىء النهضة في تدريس اليونانية والقانون وعلوم الطبيعة .

الفصـــــل الثـــــاني

العصور الحديثة ومظاهرها

اختلف المؤرخون في تحديد بداية التاريخ الاوربي الحديث ، ويعود هذا الاختلاف الى صعوبة تحديد مرحلة تاريخية معينة وبداية مرحلة اخرى ، فنحن لا نستطيع ان نرسم خطا فاصلا وواضحا بين مرحلتين من تاريخ الانسانية في قارة كبيرة مثل اوروبا . فالانتقال من مرحلة الى اخرى يتم عادة بشكل بطيء يصعب معه تمييز معالم التغيير في فترة زمنية قصيرة . فكيف بنا اذا كانت هناك مرحلة انتقال بين العصور الوسطى والعصور الحديثة ، تلك هي مرحلة عصر النهضة الذي تشعبت جذوره في اواخر العصور الوسطى وامتدت فروعه لتتشابك مع العصور الحديثة .

من جانب آخر فإن الانتقال من عصر الى آخر لا يتم بكل البلدان في وقت واحد ، وبقدر تعلق الأمر بالعصور الحديثة فأن تفاوت بداياتها زمانا ومكانا هو نتيجة طبيعية لتفاوت ظهور عصر النهضة باعتبارها امتدادا له . فالعصور الحديثة بدأت في فرنسا في وقت كانت فيه روسيا لا تزال تعيش بمفاهيم العصور الوسطى . وعموما فأن بلدان شرق اوروبا بقيت تعيش نظم وتقاليد العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر في وقت كان الفرنسيون والبريطانيون قد قطعوا اشواطا بعيدة من العصور الحديثة .

ان هذا التفاوت الزماني والمكاني لتطور الاحداث في اروربا لم يمنع المؤرخين والباحثين من اعتماد احداث بارزة في تحديد بداية العصور الحديثة في اوروبا من اجل تسهيل دراسة التاريخ ، الا انهم اختلفوا فيها ايضا . فاكثر المؤرخين الاوربيين

يميل الى اعتبار سقوط القسطنطينية على يد الدولة العثمانية سنة (1453 م) [بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر] منطلقا لبدء تاريخ اوروبا الحديث . ذلك ان هذا الحدث في تقديرهم قد ساعد على دفع النهضة العلمية والتقدم الحضاري بشكل قوي لان علماء بيزنطية الذين هاجروا من القسطنطينية بعد سقوطها الى غرب اوروبا قد حملوا معهم نتاجات حضارة اليونان وما اخذوه من تراث الحضارة العربية الاسلامية التي استفادت منها دولتهم الامبراطورية البيزنطية والتي يعتبر سقوطها حدثا خطيرا في تاريخ اوروبا .

ويميل البعض الاخر من المؤرخين الاوربيين ، وخصوصا الفرنسيين ، إلى اعتماد سنة 1492 كبداية للعصور الحديثة . ففي هذه السنة تم اكتشاف القارة الامريكية مما ادى الى تغيير الكثير من المفاهيم والاعراف الجغرافية السائدة ، فقد اكتشف الانسان أن لعالمه اراض وبحار اخرى لم يعرفها من قبل وأن في العالم شعوبا وقارات هي غير شعوب وقارات العالم القديم الثلاث .

ورغم أن العديد من المؤرخين يتمسك بأحد هذين التاريخين ليحدد من خلاله بداية العصور الحديثة ، الا ان ذلك يبقى خاضعا للنقاش فخلال الفترة الممتدة بين سنتي 1453 و 1492 وقبلهما وبعدهما توجد احداث تاريخية اخرى بارزة لا تقل في اهميتها ونتائجها عن سقوط القسطنطينية أو إكتشاف أمريكا . ففي هذه الفترة اكتشفت الطباعة في اوروبا وهي الوسيلة التي انتشرت بها العلوم والاداب والمعرفة بين الناس عامة فأصبح تناول العلم والاطلاع عليه امرا ميسورا . وفي أوائل القرن السادس عشر اكتشف الاوربيون رأس الرجاء الصالح وداروا حول افريقيا لينفذوا الى الوطن العربي عن طريق المغرب العربي ومن خلال منفذيه الرئيسيين الاخرين باب المندب في البحر الاحمر ومضيق هرمز في الخليج العربي ، ثم دخولهم المحيط الهندي وجنوب شرقي آسيا . لقد احدثت هذه الاكتشافات تحولات اقتصادية وتجارية كبيرة وكان لها اثرها في تطور اوروبا الصناعي فيما بعد والذي ادى الى انتشار ظاهرة الاستعمار الاوروبي الحديث في آسيا وافريقيا بشكل خاص . واذا ما تناولنا الجانب العسكري فإن اوروبا قد شهدت في منتصف القرن الخامس عشر نهاية حرب المائة سنة التي استنزفت

دماء وطاقات الاوروبيين في غرب اوروبا فأضعفت سلطة الامراء الاقطاعيين ووطدت سلطة الملك .

ان هذه الامثلة هي نماذج من امثلة عديدة كان لها تأثيرها في التحول الاوروبي من العصور الوسطى . وعليه فإننا لايمكننا ان نحدد سنة معينة لبدء عصر معين . ولكي نفهم ذلك العصر وتطوره فأننا يجب ان ندرس ابرز المتغيرات والمظاهر التي تميزه عن غيره من العصور . وفي هذا المجال فان دخول اوروبا العصور الحديثة قد تم من خلال المظاهر الاتية : ـــ

ا ـــ ظهور الدول الملكية القومية :

تميزت مرحلة العصور الوسطى بغياب الحكومات القومية وسادت سلطة الكنيسة الدينية والدنيوية ، وضعف حكم الملوك بل وتلاشى امام سطوة النبلاء الاقطاعيين ورجال الدين الكبار . فالملك في فرنسا على سبيل المثال لم يكن يحكم سوى اقطاعا في باريس ولا تتعدى سلطته بقية الاقطاعات وكانت الحالة شبيهة في كل من اسبانيا والمانيا ودول اوروبية اخرى . لكن الظروف التي جعلت من النبيل الاقطاعي ورجل الدين مهيمنا قويا قد تبدلت بفعل عوامل عديدة ، ومن هذه العوامل الحروب الصليبية التي اضعفت النظام الاقطاعي عموما مما ساعد الملوك في اوروبا على التحرك لاستعادة مكانتهم وقد ساعدهم في ذلك تغير طبيعة الانتاج في اواخر العصور الوسطى ، فلم تعد الارض الاساس الوحيد للانتاج بعد ان بدت الطبقة البرجوازية بالنمو حيث ازدهرت التجارة فاصطدمت مصالحها مع مصالح الاقطاع وبدأ الصراع بينهما . وقد وجدت البرجوازية في الملوك الحليف المصيري لانهاء النظام الاقطاعي ، كما وجد الملوك في البرجوازية الاداة التي تمتلك ارادة التغيير . وهكذا شهدت اوروبا الغربية صراعا طاحنا وحروبا طويلة انتصرت فيها الملكية والبرجوازية على الاقطاع والكنيسة . ولاشك ان اختراع البارود والمفرقعات كان له اثره في انتصار الملوك ودك قلاع النبلاء الاقطاعيين وتحطيم حصونهم التي كانوا يدافعون منها بواسطة فرسان العصور الوسطى الذين يستخدمون السيف والرمح والدرع في قتالهم .

لقد تبلورت سلطة الملوك الاوروبيين الى نوع من الحكومات الملكية القومية بعد ان اتجهت شعوب اوروبا الغربية الى التجمع على اسس قومية داخل حدود طبيعية واضحة فأصبحت تلك الحكومات سلطات لوحدات سياسية مستقرة . ومع مطلع القرن السادس عشر نضجت الدولة الملكية القومية في العديد من دول اوروبا وتكونت لها مرتكزات ودعائم قوية بعد ان تهشم النظام الاقطاعي في اوروبا .

ومن الامثلة على نشأة الدولة الملكية القومية هي فرنسا ، فقد تكونت الدولة فيها بفعل انظمام دوقيات واقطاعيات الواحدة الى الاخرى ، إما بسبب الزواج أو الارث أو أسباب اخرى ، عندما أصبحت الظروف ملائمة لتكوين الدولة بفعل ضعف الاقطاع وبروز الطبقة البرجوازية وقوة الملوك الذين بدأوا يستخدمون جيوشا ثابتة لحماية كياناتهم السياسية والتي بدأت تظهر في داخلها معالم توزيع السلطات الادارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية التي يكون القصر الملكي مركز ادارتها وتوجيهها . وفي اسبانيا ظهرت الدولة الملكية القومية عندما توحدت مملكتي اراغون وقشتالة بزواج ملك أراغون من ازابيلا ملكة قشتالة وقد اكتملت وحدة الدولة الملكية الاسبانية بالقضاء على الوجود الاسلامي فيها . أما في انجلترا فقد برزت قوة الملكية فيها منذ الربع الاول من القرن الثالث عشر وترسخت الوحدة القومية التي انتهت بضم اسكوتلندا بعد ضم بلاد الغال (ويلز) لتظهر دولة بريطانيا في القرن السابع عشر .

2 ــ الاستكشافات الجغرافية :

ا ــ اثر العرب المسلمين في تطور علم الجغرافية في اوروبا :

تعتبر الاستكشافات الجغرافية ظاهرة بارزة من ظواهر العصور الحديثة مقارنة بالاراء والمعتقدات الجغرافية التي كانت سائدة في اوروبا في العصور الوسطى . فقد كان الاوربيون يتصورون ان الارض قرص كبير منبسط يحيط به البحر ومركز هذا القرص هو بيت المقدس ، أو أن الارض محاطة ببحار تنتهي بجدران تشدها الى السماء ، وان هذه البحار تتحول في الشمال الى كتل جليدية وفي الجنوب الى بخار بسبب شدة الحرارة . وقد ارتبطت هذه التصورات بالخرافات

التي كانت تشيعها الكنيسة في العصور الوسطى لفرض هيمنتها على عقول الناس حيث لم تكن تسمح بمناقشة أي من الامور التي كانت تروجها لكي تبقى سلطتها الدينية الدنيوية دون منازع ولكي تحفظ ما كانت تتمتع به من امتيازات التي تدر ثروات وفيرة على كبار رجال الدين وحلفائهم النبلاء الاقطاعيين .

بدأت المعلومات الجغرافية بالتطور اثر اتصال الاوربيين بالعرب المسلمين عن طريق الحروب الصليبية والاندلس وصقلية حيث نشطت الحركة التجارية الايطالية في البحر المتوسط لتكون همزة وصل بين معطيات الحضارة العربية الاسلامية والغرب الاوروبي في العصور الوسطى . ولقد كان للرحالة والعلماء العرب الاثر الكبير في نمو المعلومات الجغرافية لدى الاوربيين الذين اطلعوا على رحلة الرحالة المغربي ابن بطوطة (1324 ــ 1355) في كتابه الموسوم «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» الذي قدم فيه وصفا لبلاد الصين والسودان . وقد ترجمت العديد من المؤلفات العربية الجغرافية الى اللاتينية ، يضاف الى هذا ان اوروبا مدينة للعرب بحفضهم معلومات اليونان الجغرافية التي لم يعرفها الاوربيون الا من خلال الكتب العربية التي لم تكتف بحفظ المعلومات اليونانية بل مالبث العرب ان صححوا ما وقع فيه جغرافيوا اليونان من اخطاء واضافوا من تجاربهم الشيء الكثير . ومن هذه المؤلفات كتاب الشريف الادريسي الموسوم «نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والافاق» وهو مزود باكثر من أربعين خارطة . ويقال ان فاسكو دي كاما درس خرائط البحار التي رسمها العرب من قبل . ولابد من ان نذكر ايضا ان المعلومات التي خلفها الرحالة ماركو بولو (1271 ــ 1295) حول جنوب آسيا وبلدان الشرق الاقصى في مؤلفه الذي اسماه (كتاب العجائب) كان لها تأثيرها في تنامي المعلومات الجغرافية .

أما في مجال استخدام التقنيات في الاستكشافات الجغرافية فيعود الفضل فيها للعرب ايضا ، فقد استعملوا (البوصلة) في الملاحة بشكل واسع واوصلوها الى الاوروبيين حيث مكنت البوصلة البحارة الاوربيين من معرفة مواقع مراكبهم بالنسبة الى الشمال الذي يشير اليه دائما اتجاه الابره المغناطيسية في البوصلة . كذلك اوصل العرب للاوربيين (الاسطرلاب) الذي يساعد على معرفة خط العرض الذي

يوجد فيه المركب وذلك بقياس الزاوية المحصورة بين الافق والشمس نهارا أو بين الافق والنجمة القطبية ليلا . وقد شجع استعمال الاسطرلاب على التوغل في البحار واكتشاف المجهول منها .

ب ــ دوافع الاستكشافات الجغرافية :

اختلفت اسباب قيام الاستكشافات وتعددت ، الا أن الدافع الاقتصادي يبقى هو الاول في هذا المجال . فقد كان العرب والايطاليون وبالتحديد منهم تجار مدينتي البندقية وجنوه يحتكرون التجارة عبر البحر المتوسط بين اوروبا والشرق الاقصى ومن خلال عدة طرق منها الطريق البري من اواسط اسيا الى القسطنطينية ومنها الى اوروبا والثاني عن طريق البحر حيث كانت سفن العرب المسلمين تنقل البضائع من جنوب آسيا الى البصرة في العراق ومنها بالقوافل الى موانىء بلاد الشام على البحر المتوسط ومن ثم ينقلها الايطاليون الى اوروبا . اما الطريق الثالثة فكانت عبر البحر العربي والبحر الاحمر حيث تقوم سفن العرب المسلمين بنقل البضائع الى السويس ومنها بالقوافل الى الاسكندرية لينقلها الايطاليون الى اوروبا ، ومن البضائع التي بدأ الاوربيون بمعرفتها منذ الحروب الصليبية هي التوابل والحرير .

تغيرت الموازين التجارية الاقتصادية في القرن الخامس عشر عندما بسطت الدولة العثمانية نفوذها على معظم اجزاء الوطن العربي وفرضت سيطرتها على تموين اوروبا بالبضائع الشرقية وبالتالي فرض الضرائب عليها مما زاد في اثمان البضائع وتقليل ارباح التجار الاوربيين ، علما ان بعض المؤرخين لا يرى في هذا سببا من اسباب الكشوف الاقتصادية معللين ذلك بان اسعار التوابل لم ترتفع في اوروبا قبل سنة 1500 . من جانب آخر فان احتكار الايطاليين للتجارة قد دفع بقية التجار الاوربيين للتفتيش عن منافذ اخرى . وهكذا بدأ التوجه نحو كشف طرق جديدة دون المرور بالوسلطتين العربية الاسلامية والايطالية .

أما الدافع الثاني الذي لعب دورا في عملية الاستكشافات الجغرافية فقد كان العامل الديني حيث وجدت الكنيسة في الاستكشافات وسيلة لنشر الديانة المسيحية ، وخصوصا الكنيسة الكاثوليكية في اسبانيا والبرتغال . وقد عكست هذا الدافع نوايا المستكشفين الاوربيين فالامير هنري الملاح كان يهدف الوصول

الى مملكة القديس يوحنا في شرقي افريقيا وهي المملكة المسيحية التي كان الاوربيون يسمعون عن قوة حاكمها الذي يمكن الدخول معه في حلف ليكون قاعدة لنشر المسيحية والانقضاض على العرب المسلمين الذين كانوا يحتكرون التجارة . اما كريستوفر كولومبس الذي كلفه الاسبان برحلة الى الهند واسواق الشرق فقد أعلن عن عزمه استخدام ثروة الشرق التي ستقع بين يديه لتخليص بيت المقدس من المسلمين .

ولاشك ان استعمال التقنيات التي اشرنا اليها في موضوع فضل العرب المسلمين على اوروبا وكذلك حب المغامرة والاطلاع كان لهما اثر مهم في دفع الاستكشافات الجغرافية الى الأمام . لقد كانت المراكب في العصور الوسطى غير قادرة على دخول المحيطات فهي اما واسعة الشكل وعالية الجوانب وثقيلة وقليلة السرعة وذات ركيزة واحدة وشراع واحد أو نحيلة الشكل منحدرة الجوانب ، الا ان الحاجة لمواجهة المحيطات قد دفعت الى صنع سفينة من نوع جديد لا تتعدى 30 مترا طولا وفيها خمسة أشرعة موزعة على ثلاث ركائز تمتاز بالخف والقدرة على تحمل الامواج وتبلغ سرعتها حوالي 10 كلم في الساعة . وقد ساعد وقوع البرتغال واسبانيا على المحيط الاطلسي والبحر المتوسط في قيادتهما الاستكشافات الجغرافية .

ج ــ حركة الاستكشافات الجغرافية :

انطلقت حركة الاستكشافات الجغرافية من شبه جزيرة ايبريا (اسبانيا والبرتغال) وقد سبقت البرتغال اسبانيا في هذا المضمار . و ساعدهم في ذلك علوم الملاحة التي عرفوها عن العرب كما حصلوا على بعض الخرائط التي رسمها العرب للمحيط الهندي وبحر الصين ، وجمعوا ايضا دراسات عربية عن التيارات البحرية ومواعيد الرياح وغيرها ، ناهيك عن استخدامهم للبوصلة والاسطرلاب مما أعانهم في معرفة حركات النجوم .

كان أول من بدأ حركة الاستكشافات البرتغالية الامير هنري الملاح الابن الثالث لملك البرتغال يوحنا الاول الذي كان منذ صغره مولعا بالجغرافية والفلك ونجح في الاستيلاء على مدينة (سبتة) المغربية على البحر المتوسط فعينه والده حاكما

عليها ، الا انه فشل في احتلال (طنجة) القريبة منها بفعل المقاومة [redacted] للمغاربة ، فتحولت جهوده نحو استكشاف السواحل الغربية لافريقيا المطلة على المحيط الاطلسي ، فتم له اخضاع السواحل المغربية على الاطلسي ممتدا حتى نهر السنغال وغانا واستخدم تجارة الرقيق الافريقي لتوسيع نشاطاته بهدفين الاول انشاء امبراطورية برتغالية والثاني نشر الديانة المسيحية بالتقدم عبر نهر السنغال للاتصال بمملكة القديس يوحنا في الحبشة للنفاذ منها الى البحر الاحمر وموانىء بلاد العرب ثم الى الهند والصين . وقد اكمل هنري الملاح استكشاف ثلث الساحل الافريقي على المحيط الاطلسي قبل وفاته 1460 .

عاود البرتغاليون نشاطهم في الاستكشافات الجغرافية سنة 1487 عندما ارسل الملك يوحنا الثاني بعثة يرأسها الملاح (بارتلمو دياز) الذي اكتشف اقصى جنوب القارة الافريقية وأطلق عليه اسم (خليج الزوابع) وعاد بعد سنة واحدة من رحلته معلنا ان الطريق اصبحت واضحة الى الهند فأطلق الملك على ذلك الخليج اسم (رأس الرجاء الصالح) بدلا من الزوابع . جاء (فاسكو ديجاما) ليحقق احلام البرتغاليين في الوصول الى الهند متمما بذلك جهود الذين سبقوه في تمهيد الطريق له . فقد دار حول جنوب افريقيا وساحلها الشرقي مرورا بالبحر العربي فالمحيط الهندي الى مدينة كاليكوت على الساحل الغربي لشبه القارة الهندية حيث اتصل هناك بالامراء الهنود وعقد معهم الاتفاقات التجارية وعاد الى بلاده سنة 1499 محملا بالمنتوجات الشرقية . وتشير بعض المصادر الى ان الملاح العربي احمد بن ماجد كان له الفضل الاكبر في ارشاد (ديجاما) الى الهند مما ادى في النهاية الى القضاء على احتكار العرب للتجارة في البحر العربي والمحيط الهندي ، ولهذا ينعته البعض بالخيانة ، الا أن هناك بحوثا جديدة تشير الى ان المصادر التي كتبت عن هذا الحدث لم تقصد احمد بن ماجد وانما كان شخصا آخر من الهند لا علاقة له بالعرب وعليه فلا صحة لما ورد في المصادر الحديثة عن ابن ماجد ★ .

★ اثير هذا الموضوع في الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية في ابوظبي المنعقدة في نوفمبر 1979 ، في بحث الاستاذ علي التاجر المعنون (مناقشات حول ابن ماجد)

سيطر البرتغاليون على مضيق هرمز واجزاء من جنوب الخليج العربي وكذلك مدخل البحر الاحمر بواسطة [الفونسو البوكيرك] ذو النزعة الاستعمارية المتعصبة ضد العرب المسلمين . الا أن حركة الاستكشاف البرتغالية التي تحولت الى استعمار للخليج العربي والبحر الاحمر قد لقيت مقاومة شديدة من قبل اهل اليمن في البحر الاحمر واليعاربة في عمان . فقد تمكن اليعاربة من القضاء على التحالف البرتغالي — الفارسي ضدهم وأبعدوا البرتغاليين وطاردوهم حتى السواحل الشرقية لافريقيا . وكان لمعركة وادي المخازن بين المغاربة والبرتغاليين التي انتصر فيها المغرب تأثير مهم في انتصار اليعاربة على البرتغاليين .

لم يكتف البرتغاليون باستكشاف افريقيا وآسيا بل اتجهوا الى امريكا الجنوبية عندما دفعت الريح الملاح البرتغالي كبراك سنة 1500 الى سواحل البرازيل حينما كان في طريقه الى الهند . وقد توطد الاستعمار البرتغالي في البرازيل بعد ربع القرن من وصول كبراك اليها وذلك اثر ملاحظتهم ما حصلت عليه اسبانيا من ثروات في امريكا وادراكهم ان احتكارهم التجارة الشرقية لم يتحقق تماما .

في الوقت الذي اتجه البرتغاليون الى الشرق في استكشافاتهم توجه الاسبان الى الغرب ، فخرج سنة 1492 الملاح الجنوي (كرستوفر كولومبس) من اسبانيا عبر المحيط الاطلسي وظل يبحر غربا حتى وصل أرضا يابسة فاعتقدانه وصل الى جزر من ساحل الهند اطلق عليها اسم جزر الهند الغربية . وتوالت رحلاته الى هذه المناطق دون ان يعلم انه قد اكتشف القارة الامريكية . لكن جهود كولومبس توقفت عندما وشي به الحساد في البلاط الاسباني على اساس انه اضاع اموال الدولة في رحلات غير مجدية وقد مات كولومبس في سجنه سنة 1506 . وفي سنة 1519 بدأت رحلة فردناند ماجلان حول العالم بتكليف من الامبراطور النمساوي شارل الخامس حيث اتجه من اسبانيا غربا ووصل شاطىء البرازيل عند مدينة (ريودي جانيرو) ثم دار حول امريكا الجنوبية ودخل سنة 1520 المحيط الذي اسماه تفاؤلا بالهادىء حتى وصل جزر الفيلبين التي كان البرتغاليون قد وصلوا اليها عن طريق الشرق وبذلك اثبت ماجلان كروية الارض لكنه لم يتمكن

من اكمال دورانه بسبب موته في جزر البهار ، وقاد سفينته من بعده (جون سباستبان دل كانو) في طريقة الى اسبانيا .

لقد ادت حركة الاستكشافات الجغرافية الى الغاء كافة المعلومات الجغرافية التي كانت الجامعات والمدارس تتمسك بها في ظل سيادة الكنيسة وظهرت للعالم في مطلع العصور الحديثة خارطة جديدة تختلف تماما عما كانت عليه من قبل . ولم يعد البحر المتوسط مركز الثقل وعقدة المواصلات والتجارة الوحيدة في العالم ، بل توسعت الى دول غرب اوروبا المطلة على المحيط الاطلسي . اما في مجال السيطرة على شعوب العالم ، فقد كان الاستعمار واحدا من ابرز نتائج الاستكشافات الجغرافية واهمها والذي اتصف بالقسوة والعنف اللذان استعملها البرتغال والاسبان في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . وعموما فإن حركة الاستعمار التي قادتها مع هاتين الدوليتن كل من بريطانيا وفرنسا في امريكا الشمالية لوصول مكتشفهم اليها قد ولدت عالما جديدا في السياسة والاقتصاد كانت له ابعاده حتى يومنا هذا .

3 ــ الاصطلاح الديني :

كانت الكنيسة في نظر المسيحيين المتدينين صورة للاخلاص والصفاء والامانة ، وبفعل الظروف التي رافقت قيام النظام الاقطاعي في اوروبا ، أصبحت الكنيسة وعلى رأسها البابوية سيدة اوروبا التي لا تنازع . لكن فشل الحروب الصليبية في تحقيق اهدافها أفقد الكنيسة الكثير من قدراتها وطاقاتها . يضاف الى هذا ان رجال الدين وخصوصا الكبار منهم قد تركوا واجباتهم الدينية مندفعين نحو الاستفادة من النفوذ والسلطان ، فاهتم الباباوات وبعض رجال الدين الكبار بمظاهر الترف وحياة البذخ مما افقد هذه المؤسسة الدينية بعض هيبتها واحترامها لدى الجماهير الاوروبية التي ظلت في القرنين الاخيرين من العصور الوسطى شديدة التعلق بالمسيحية .

وهناك من الأمثلة العديدة حول ذلك ، فقد استحدثت الكنيسة ما يسمى بضريبة الواردات تفرض على كل اسقف او رئيس دير ان يرسل في السنة الأولى

لولايته اكبر كمية من واردات ديره أو اسقفيته الى روما . فشاع الترف والابهة والبذخ في البلاط البابوي وبين كبار رجال الدين ، وأخذت الرشوة تنتشر بين رجال الدين وشاع بيع المناصب الكنسية على نطاق واسع ، اما الغفران الذي كانت الكنيسة تمنحه للتائبين والمستغفرين فقد اصبح تجارة يعطى للاحياء والاموات .

بناء على ما تقدم ارتفعت الدعوات الى اصلاح الكنيسة ، وكان من أوائل دعاة الاصلاح الانجليزي ويكليف الذي دعا الى العودة بكنيسة المسيح الى ايامها الاولى وطلب من الناس فرض الاصلاح على الجميع وحتى على البابا نفسه . وقد تطرف في دعوته الى حد الاعتقاد ان الانسان المسيحي يستطيع الحصول على الغفران والرحمة بالعودة مباشرة ودون وساطة الى الكتاب المقدس ، اي دون حاجة للكنيسة . وقد لقيت دعوة ويكليف استجابة واسعة لدى جماهير الانجليز المتدينين . وفي بوهيميا (تشيكوسلفاكيا » نادى هس HUSS (1376 ــ 1370) بالعودة الى الكتاب المقدس لكنه لم يتمرد على سلطان الكنيسة . ومن دعاة الاصلاح الاخرين (أرازم) (1466 ــ 1536) الذي كان معتدلا في انتقاده للكنيسة ودعا الى اصلاح رجالها بحلم ورفق .

وعندما دخلت أوروبا القرن السادس عشر ، وهو مستهل العصور الحديثة ، ظهرت الدعوة الى الاصلاح بشكل عنيف ، فقد ظهر في المانيا مارتن لوثر الذي ثار على كنيسة روما في العصور الحديثة ، وهو ابرز من حمل راية العصيان بوجه البابا . ولد مارتن لوثر في مقاطعة سكسونيا الالمانية سنة 1483 ودرس الحقوق لكنه لم يكمل دراسته الجامعية فانتظم في سلك الرهبنة سنة 1505 وتفرغ في دير القديس اغسطنيوس مدة ثلاثة سنوات للزهد والعبادة والتأمل . ثم حصل على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت ثم على كرسي الاستاذية في جامعة فتنبرغ Wittenburg حيث درس الفلسفة واللاهوت وكانت فلسفة لوثر في الاصلاح تقوم على أن الايمان يأتي في المقام الاول ، وهو قبل الاعمال باعتباره طريق الانسان الوحيد للخلاص . اما الاعمال فلا جدوى منها ، فالحج والاحتفالات الدينية وايقاد الشموع وعبادة المخلفات الدينية هي في رأي لوثر عقبات في طريق الخلاص . فالغفران هو الثواب بالايمان .

خزانة كلية الآداب

لم تشعر الكنيسة بخطر هذه الافكار الا حين تصدى لوثر سنة 1517 لراهب ارسلته البابوية الى المانيا لبيع صكوك الغفران حيث كانت بحاجة الى الاموال لصرفها في اصلاح كنيسة القديس بطرس . ان بيع صكوك الغفران لم يكن مقبولا من قبل حكام المانيا ومثقفيها الذين كانوا يرون في بيع هذه الصكوك ضياعا للثروة القومية الالمانية لصالح روما والايطاليين في وقت تحتاج فيه المانيا لهذا المال لمعالجة مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية الكثيرة . اما مارتن لوثرفقد كان ينظر للموضوع من زوايه عقائدية صرفة . كان يعتقد أن الغفران لا يأتي الا عن طريق الايمان برحمة الله ، وليس من حق الكنيسة او رجال الدين ان يمنحونه للناس لانه هبة من الله للتائبين . وقد استغل لوثر فرصة اجتماع الناس في كنيسة فتنبرغ سنة 1517 وعلق على باب الكنيسة اعلانا يتألف من 95 بندا ضمنه اراءه ومواقفه من قضية صكوك الغفران وقضايا اخرى كثيرة ، فكان ذلك بداية للثورة اللوثرية التي انتشرت بسرعة بين الناس والتي قادت الى تأسيس الكنيسة البروتستانتية المستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية على اساس اقامة الكنائس الوطنية . ولعل أخطر ما طرحه لوثر مناداته انه ليس من حق البابا احتكار تفسير الكتاب المقدس لان كل انسان مدرك وعاقل باستطاعته بل ومن حقه تفسيره وفق مداركه وفهمه .

اصدر البابا ليو العاشر بيانا يندد بأفكار لوثر ويهدده بالحرمان ، الا أن لوثر رد على ذلك بحرق المنشور البابوي علنا يوم عيد الميلاد سنة 1520 مما ادى الى صدور قرار بابوي بالحرمان . لكن افكار لوثر انتشرت وكثر اتباعه . ولم ينفع قرار المجمع الديني سنة 1521 باعدامه ، فقد هرب لوثر بمساعدة صديقه وظل مختبئا لمدة سنة . ومع هذا اعتنق العديد افكار لوثر وتجاوب الناس معها فظهرت الى الوجود الكنيسة البروتستانتية .

ومن المصلحين الذين ظهروا في مناطق اخرى من أوربا هو جون كلفن الذي ولد سنة 1509 في فرنسا ودرس علم اللاهوت في جامعة باريس ، واطلع على آراء المصلحين امثال مارتن لوثر ، وغادر فرنسا بسبب اضطهاد الملك فرانسوا الاول للبروتستانت ، فاستقر في سويسرا سنة 1536 وهناك اصدر كتابه المشهور « تنظيمات الدين المسيحي » . وقد استطاع بمساعدة الذين وفدوا اليه من

مختلف بلدان اوروبا ان يقيم في جنيف حكومة دينية بقي يرأسها حتى وفاته سنة 1564 . وكان قد اسس سنة 1558 الجامعة لتكون مركزا لتخريج الدعاة والقسس البروتستانت .

ابرز كلفن في كتابه المذكور اعلاه مفاهيم جديدة لحركة الاصلاح الديني ، وعموما فانه التقى واختلف مع لوثر في العديد من الامور ، فقد ايد لوثر في اعتبار الكتاب المقدس المرجع الوحيد لقضايا العقيدة والايمان من دون البابا ، ووافقه في ضرورة السماح لرجال الدين بالزواج وفي رفض تقديس العذراء والقديسين وفي ان الغفران يكون بالايمان الصحيح قبل الاعمال . وفي هذا المجال ، اي موضوع الغفران ، تطرق كلفن اكثر من لوثر فقد رأى ان الغفران هو هبة من الله يقدرها لعباده منذ الازل بغض النظر عن اعمالهم وفضائلهم ، فالثواب والعقاب هي امور مقدرة على الانسان منذ الازل . لقد شاء الله حسب راي كلفن ان يصيب بالخلاص بعض البشر وان تحل اللعنة بالبعض الاخر منهم ، وهو بهذا اشبه ما يكون (بالجبرية) في الاسلام . اما المؤمنين العابدين الزاهدين في ترف العيش فقد ميزهم كلفن على انهم الصفوة التي اختارها الله منذ الازل واراد لها الخلاص ، اما عن اختلاف كالفن مع لوثر فقد كان في موضوع خضوع الكنيسة للدولة : فهو يرى أن تخضع الدولة وجميع سلطاتها لتلك القلة التقية الورعة العاملة في سبيل المسيحية حيث يمكن في ضوء ذلك اقامة المجتمع الديني الذي يتصف اهله بحسن الخلق وصفات القديسين وتكون واجبات الملوك فيه خدمة الدين والعمل وفقا لما انزله الله في الكتاب المقدس . وقد اراد كلفن من حكومته التي اقامها في جنيف تطبيقا عمليا لمبادئه ، لكن نظامه في جنيف لم يستمر طويلا بسبب المعارضة القوية التي قامت ضده نتيجة لصرامة الحكم وقسوة الكنيسة في تعاملها مع الذين لم يتفقوا مع الكلفنية في ارائها . فاضطر كلفن الى مغادرة جنيف سنة 1538 لكنه عاد اليها مرة ثانية بعد ان طالبه المواطنون فيها بالعودة لتدهور الاحوال فيها اثر خروجه منها ، وقد بقي حاكما ومبشرا فيها حتى وفاته سنة 1564 .

لقيت دعوة كلفن في فرنسا استجابة كبيرة ، ففي مطلع النصف الثاني من القرن الخامس عشر التحق حوالي 1/ 5 عامة الفرنسيين بركب الكالفنية

وارتفعت هذه النسبة الى النصف عند الطبقة الوسطى والامراء فانتقلت الحركة الكلفنية من مرحلة السرية في فرنسا الى العلنية واقامت اول مجمع لكنيستها في باريس سنة 1559 . كما انتشرت الكلفنية بين عدد من سكان المجر وبوهيميا وفي بولندة والاراضي المنخفضة ، بل انها وصلت الى اسكلندا وانجلترا .

وفي سويسرا نفسها ظهر مصلح آخر هو (اولريخ زونجلي) الذي بدأ دعوته في مدينة زيوريخ بعد ان تثقف على افكار المصلحين المعارضين امثال (ارازم) وقرأ في الدراسات الافريقية والرومانية القديمة وقد بدأ يبث افكاره من خلال وعظه في كنيسة زيوريخ الكبرى ، فأصبح له اتباع كثيرون وتوسعت هيمنته مما ادى الى انقسام المقاطعات السويسرية بين بروتستانت والكاثوليك ، فكانت حصة زونجلي ست مقاطعات سويسرية وبعض المدن في جنوب المانيا .

كان زونجلي شديد التأثر بالكتاب المقدس وركز على القضايا الوطنية والقومية فدعا الناس الى عدم الالتحاق بالجيوش الاجنبية مؤكدا على ضرورة خدمة سويسرا قبل كل شيء وان لا يخضعوا بعد الان لسلطة روما التي كانت السبب في نكباتهم ، وهاجم نظام الرهبنة وحرم استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة .

وقف زونجلي ضد بيع صكوك الغفران وقد تجلى ذلك بشكل عملي عندما وفد على زيوريخ احد الرهبان المبعوثين من البابا لبيع تلك الصكوك سنة 1519 . الا ان هذا لا يعني ان زونجلي كان متفقا تماما مع لوثر الذي وقف هو الاخر ضد بيع صكوك الغفران . فبينما اعتبر لوثر السلطة السياسية سواء الأمير او الحاكم رئيسا أعلى للكنيسة والمهيمن على شؤونها نجد ان زونجلي يرفض ذلك ويدعو الى تحويل الكنيسة الى مؤسسة قائمة بذاتها تديرها هيئة منتخبة من قبل المسيحيين لها الحق في اتخاذ القرارات المتعلقة بالكنيسة . وفي مجال القضايا الوطنية والقومية التي اشرنا اليها آمن زونجلي بان للكنيسة مهمة اخرى هي الاصلاح السياسي والاجتماعي والوقوف بوجه ما يقترفه الحكام من مظالم تجاه الفقراء والضعفاء . كما اختلف زونجلي عن لوثر في تمسكه باستعمال العنف لنشر دعوته بينما فضل اللوثوريون العمل السياسي ، ولهذا نجد ان زونجلي واتباعه قد خاضوا الحرب في سويسرا ضد الكاثوليك مرتين ، وقد شارك في المعركة الثانية بنفسه وانهزم جيشه امام الكاثوليك

سنة 1531 ولقي حتفه واحرق الكاثوليك جثته ولم تستقر الامور في سويسرا الى ان عقد الصلح بعد سنة واحدة من موته حيث تقرر ان يكون لكل مقاطعة ومدينة في سويسرا الحق في اختيار مذهبها وتقرير مسائلها الدينية بنفسها .

اما في بريطانيا فقد كان الدافع الرئيسي للاصلاح الديني غير عقائدي لان الملك هنري الثامن كان يريد تطليق زوجته والزواج باخرى . ولما كان المذهب الكاثوليكي لا يسمح بذلك فقد فصل الكنيسة الانجليزية عن روما واعلن نفسه رئيسا لها بعد ان رفض البابا السماح بالطلاق .

لقد شكلت حركة الاصلاح الديني في اوروبا ظاهرة مهمة من ظواهر العصور الحديثة لتأثيرها الكبير في الحياة السياسية والدينية ، فقد افرزت تمزقات وخلافات وحروب بل وحركات اصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية سنتناولها في فصل قادم . ولابد اخيرا من الاشارة الى انه رغم ان البروتستانت كانوا مختلفين في تفسير عقيدتهم في بعض اوجهها كما رأينا . الا انهم كانوا متفقين تماما في رفض دكتاتورية البابوية وعدم الاعتراف بالصفة القدسية لها ولرجال الدين الكبار . ونادوا بحرية القسيس في الزواج ، ولم يعترفوا بالرهبنة واصبحت لغتهم هي اللغة القومية لبلدهم بدلا من اللاتينية . وانكروا استحالة المادة (القربان) الى لحم ودم المسيح ، وعارضوا (الاعتراف) الذي يؤمن الكاثوليك بأنه يحقق الغفران من الخطايا والذنوب .

4 ــ تطور العلوم والثقافة

كانت ثقافة العصور الوسطى دينية صرفه تتوافق مع النصوص المقدسة والتقاليد المسيحية ، فكانت الكنيسة تهيمن على الثقافة والادب ويحتكر رجالها من الكهنة والرهبان المعرفة والتعليم دون سائر البشر . ومما كان يقوي من سيطرة الكنيسة على الحياة الفكرية كون اللغة اللاتينية هي اللغة المتداولة في المدارس والجامعات من دون سائر اللغات القومية وقد حافظت الكنيسة بعناد شديد ولزمن طويل على سيادة اللاتينية على الحياة العقلية باعتبار ان ذلك يسمح لها بفرض رقابة شديدة على تطور الثقافة فلا تنمو في اتجاهات لا تتوافق والمعتقدات المسلم بها من قبلها ، لذلك حارب رجال الكنيسة بشدة اللغات القومية والمحلية ،